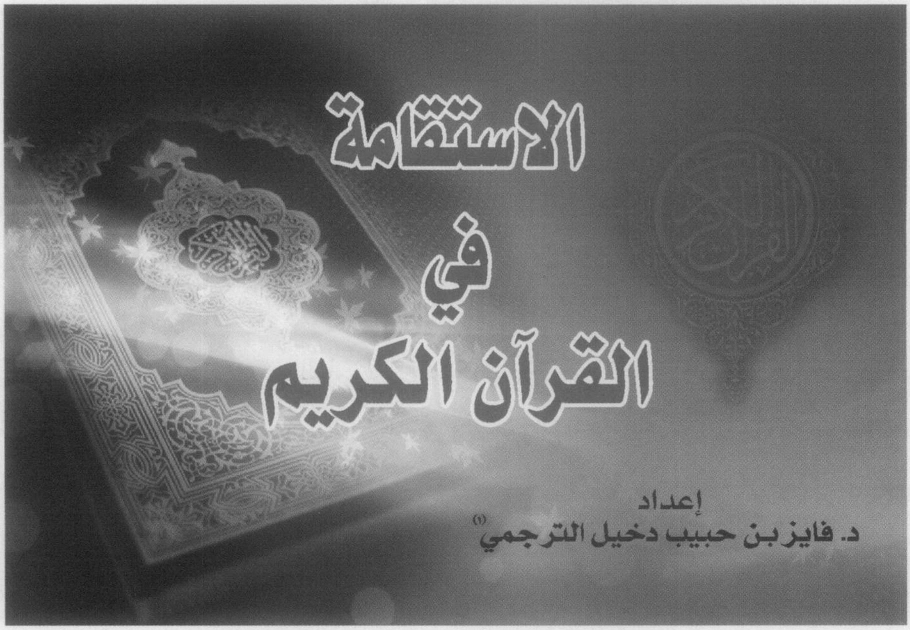

الاستقامة في القرآن الكريم

إعداد

د. فايز بن حبيب دخيل الترجمي(١)

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى، أحمده حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، فهو أهل لأن يحمد، فما أعظم منّه وفضله علينا، فلك اللَّهم الحمد حمداً أستلهم به رضاك، وأستمد به العون منك في الاستقامة على طاعتك والسير على مرضاتك، فأسألك اللَّهم أن تلهمني رشدي وأن تعيذني من شر نفسي ونزغات الشيطان، وأن تُقَوِّم ما فسد من حالي، وتصلح لي ما أعطيتني، ثم **أما بعد:**

فهذا مكتوب في الاستقامة وسميته بـ «**الاستقامة في القرآن الكريم**».

---

(١) الأستاذ المساعد بكلية القرآن الكريم الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد حدا بي للكتابة فيه أمران:

الأول: أهميته، فإن الدخول في هذا الدين قد يهون، ويسهل على العبد فينطق بالشهادتين، ويقر بهما لكن ماذا بعد ذلك من الاستقامة على معناهما والمحافظة على تعاليم هذا الدين وتكاليفه ومراعاة تحصيل الكمال في ذلك؟ إن الإتيان بالأفعال والأقوال على أكمل صورها وهيئاتها أمر يشق ويصعب على الكثير من الناس، خصوصاً ونحن نعيش أزماناً متأخرة، فتح على الناس فيها من الدنيا والمغريات والشهوات ما الله به عليم، مما كان له عظيم الأثر في صرف الكثير من المسلمين عن الاستقامة على دينهم، فأصبحت ترى إسلام بعضهم في هويته فقط، وأما هوايته وما شغف به قلبه وما تقترفه جوارحه، وتتلبس به صباح مساء فليس من الإسلام في شيء، فأين مثل هذا من الاستقامة التي تستدعي الدوام والثبات على تعاليم الدين، حتى الممات، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

ثانياً: أن الاستقامة عبادة قلبية لها عظيم الأثر على القلب واستقامته، وهو أمير الجوارح وقائدها، به صلاحها وفسادها، وباستقامة القلب يجني العبد ثمرة عظيمة ولذة بالغة وسعادة كبيرة، لا توازيها لذة من لذات البدن، التي يركض وراءها الكثير من عالم اليوم، فالسعادة سعادة الروح والقلب، ولا تكون إلا في طاعة الله والاستقامة على أمره.

وإن البون لشاسع بين من يسعى وراء لذة البدن ومن يسعى وراء لذة الروح، فالأول يركض وراء سراب لا يدركه، وغاية لا يحصلها، ومهما حصل من تلك اللذات فإنها لا تكبح جماح النفس، فلا يزال يركض ويلهث حتى ربما آل به الأمر إلى إزهاق روحه، لأنه لم يحقق لها مناها، ولم يصل إلى منتهاها، وأما الثاني الذي يسعى وراء لذة الروح فإنه لن يجدها إلا في طاعة الله، وكلما استقام على تلك الطاعة كلما ازدادت تلك اللذة وزاد انشراح الصدر، واتسع له الأفق، وعظمت عنده المدارك حتى يبصر الأشياء على حقائقها، ويتبين له منها النافع والضار بل لا يزال يترقى في

لذائد النعيم في هذه الدنيا فيرضى ربه ويسعد نفسه وروحه ويحافظ على صحته وبدنه وقواه فيحفظها الله عليه، حتى يصل إلى النعيم الأكبر في الآخرة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٥].

خطة البحث:

وقد سرت في هذا البحث على الخطة الآتية:

جعلته في مقدمة وستة فصول وخاتمة.

المقدمة: في أهمية الموضوع وسبب اختياره وخطته ومنهج البحث فيه.

الفصل الأول: في معنى الاستقامة لغةً واصطلاحاً ومعناها في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: أهمية الاستقامة.

الفصل الثالث: متعلقات الاستقامة.

الفصل الرابع: أسباب تحصيل الاستقامة.

الفصل الخامس: درجات الاستقامة.

الفصل السادس: ثمار الاستقامة.

منهج البحث:

حاولت في هذا البحث تتبع لفظ الاستقامة في القرآن، ومادته التي اشتق منها، «قوم» حيثما وردت، لمعرفة دلالتها ومعانيها وما يترتب على ذلك من ثمار وأسباب لتحصيلها.

ولم ألتفت إلى بقية الألفاظ التي قد تكون في معناها ومدلولها قريبة

من الاستقامة، كما أنني لم أهتم ببيان معنى الاستقامة الإجمالي الذي يوازي الصلاح والتقوى ونحو ذلك من العبارات بل جعلت الجهد منصباً على اللفظ ودلالته.

والله المستعان وعليه التكلان، وما كان في هذا البحث من صواب فبمحض توفيق الله وتسديده وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأملي في كل قارئ ومطلع على هذا البحث أن يسدد ما فيه من خلل، ويرشدني إليه على العنوان التالي:

جوال: ٠٥٠٥٣٠٨٧٣٧ - Fayz-alturjume@hotmail.com

وله مني خالص الدعاء بأن يجزل الله له المثوبة، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين.

* * *

الفصل الأول

في معنى الاستقامة لغةً واصطلاحاً، ومعناها في القرآن الكريم

الاستقامة لغة:

الاعتدال، يقال: استقام له الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] أي: في التوجه إليه دون الآلهة. وقام الشيء واستقام: اعتدل واستوى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] معنى قوله استقاموا: عملوا بطاعته ولزموا سنة نبيه ﷺ، والقيم الاستقامة، وأقمت الشيء وقومته فقام، بمعنى استقام فهو مستقيم، والقَوام العدل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ قال الزجّاج: معناه للحالة التي هي أقوم الحالات وهي توحيد الله وشهادة أن لا إله الله والإيمان برسله والعمل بطاعته وأقام الشيء أدامه ومنه ويقيمون الصلاة⁽¹⁾.

واصطلاحاً:

قال ابن رجب: الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم وهو الدين القيم ومن غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها كذلك فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها⁽²⁾.

---

(١) انظر: مادة قوم في لسان العرب (١٢/٤٩٩، ٤٩٨)، والقاموس المحيط ص(١٤٨٧)، ومختار الصحاح ص(٤٠٧، ٤٠٨).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/٥١٠).

وقال الجرجاني: الاستقامة هي الوفاء بالعهود كلها وملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل الأمور من الطعام والشراب واللباس وفي كل أمر ديني ودنيوي فذلكم هو الصراط المستقيم كالصراط المستقيم في الآخرة(١).

وقال ابن القيم: كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال والنيات.

والاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة. وربك يطالبك بالاستقامة.

وقال أيضاً: هي روح تحيا بها الأحوال، كما تربو للعامة عليها الأعمال، وهي برزخ بين وهاد التفرق وروابي الجمع. شبه الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن، فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك الحال إذا خلا عند الاستقامة فهو فاسد.

أما كونها برزخاً بين وهاد التفرق وروابي الجمع، فالبرزخ هو الحاجز بين شيئين متغايرين والوهاد الأمكنة المنخفضة من الأرض واستعارها للتفرق. لأنها تحجب من يكون فيها عن مطالعة ما يراه من هو على الروابي ولأن حال صاحب الوهاد أنزل وأدنى من حال صاحب الروابي.

وشبه حال صاحب الجمع بحال من على الروابي لعلوه ولأن الروابي تكشف لمن عليها القريب والبعيد، وصاحب الجمع تكشف له الحقائق المحجوبة عن صاحب التفرقة، إذا عرف هذا فمعنى كونها برزخاً أن السالك

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ص(٨).

يكون في أول سلوكه في أودية التفرقة سائراً إلى روابي الجمع فيستقيم في طريق سيره غاية الاستقامة ليصل باستقامته إلى روابي الجمع فاستقامته برزخ بين تلك التفرقة التي كان فيها وبين الجمع الذي يؤمه ويقصده وهذا بمنزلة تفرقة المقيم في البلد في أنواع التصرفات فإذا عزم على السفر وخرج وفارق البلد واستمر على السير: كان طريق سفره برزخاً بين البلد الذي كان فيه والبلد الذي يقصده ويؤمه(١).

معنى الاستقامة في القرآن الكريم:

من خلال تعريف الاستقامة في لغة العرب يتضح لنا أن معناها يدور حول الثبوت على الحق ولزومه والسير عليه وطلب معرفة كل ما يكمله ويبصر به، يقال: أقام بالمكان إذا ثبت فيه وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، أي: داوموا وأثبتوا عليها وحافظوا على ما من شأنه أن يكملها ويجعلها في أحسن قوام فهو أمر بالثبات عليها يستلزم سائر مكملاتها.

وتأتي الاستقامة أحياناً بمعناها الإجمالي الذي هو قريب من معنى التقوى والهداية والصلاح.

ولا شك أن الاستقامة تعني لزوم الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله حتى الممات على حد قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]، وعند الطبري وأبي يعلى والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾» [الأحقاف: ١٣]، وقال: **«قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد**

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/١١٠، ١١١).

استقام عليها»(١).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣]، وقد اختلفت عبارات السلف في معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ ففسرها أبو بكر الصديق ﷺ بقوله: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً يعني: استقاموا على التوحيد.

وهو يعني بذلك التوحيد الخالص لأنه كلما كمل توحيد العبد ابتعد عن الذنوب والمعاصي إذ هي قدح في كمال التوحيد لأنها إجابة إلى داعي الهوى وإيثار محاب النفس وشهواتها على محاب الرب سبحانه.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب.

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ: استقاموا: أخلصوا العمل لله.

وقال علي بن أبي طالب وابن عباس ﷺ: استقاموا على أداء الفرائض.

وقال الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا لطاعته واجتنبوا معصيته.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: استقاموا على محبته وعبوديته فلم يلتفوا عنه يمنة ولا يسرة.

وقال ابن جرير: استقاموا على توحيد الله ولم يخلطوا توحيد الله بشرك غيره به وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى(٢).

وقال الطاهر ابن عاشور: ومعنى ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أنهم صدعوا بذلك ولم يخشَوا أحداً بإعلانهم التوحيد، فقولُهم تصريح بما في اعتقادهم لأن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/٤٢٢)، ومسند أبي يعلى (٦/٢١٣) رقم (٣٤٩٨)، وسنن الترمذي (٥/٣٥١) رقم (٣٢٥٠)، وتفسير النسائي (٢/٢٦١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠/٤٢٤ - ٤٢٥)، وتفسير ابن كثير (٧/٣١٠٣ - ٣١٠٤)، ومدارج السالكين (٢/١٠٨، ١٠٩٩)، وجامع العلوم والحكم ص(١٩٢).

المراد بهم قالوا ذلك عن اعتقاد، فإن الأصل في الكلام الصدق وهو مطابقة الخبر الواقع وما في الوجود الخارجي.

وقوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ (يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند)، أي: لا ربّ لنا إلا الله، وذلك جامع لأصل الاعتقادِ الحق لأن الإِقرار بالتوحيد يزيل المانع من تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به إذ لم يصُدَّ المشركين عن الإِيمان بما جاء به النبي ﷺ إلا أنه أمرهم بنبذ عبادة غير الله، ولأن التكذيب بالبعث تلقوه من دعاة الشرك.

والاستقامة حقيقتها: عدم الاعوجاج والميلِ، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقويم، فحقيقة استقام: استقَل غير مائل ولا منحن. وتطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على ما يجمع معنى حسن العمل والسيرة على الحق والصدق قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، ويقال: استقامت البلاد للملك، أي: أطاعت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]. ﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ هنا يشمل معنى الوفاء بما كلفوا به وأول ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد، أي: لا يغيروا ولا يرجعوا عنه... وتعريب المسند إليه بالموصولية دون أن يقال: إن المؤمنين ونحوه لما في الصلة من الإِيماء إلى أنها سبب ثبوت المسند للمسند إليه فيفيد أن تنزل الملائكة عليهم بتلك الكَرامة مسبَّب على قولهم: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ واستقامتهم فإن الاعتقاد الحق والإِقبال على العمل الصالح هما سبب الفوز.

و(ثُم) للتراخي الرتبي لأن الاستقامة زائدة في المرتبة على الإِقرار بالتوحيد لأنها تشمله وتشمل الثبات عليه والعملَ بما يستدعيه، ولأن الاستقامة دليل على أن قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ كان قولاً منبعثاً عن اعتقاد الضمير والمعرفة الحقيقية.

وجَمَع قولُه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ أَصْلَي الكمال الإسلامي، فقوله: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق

للاهتداء به، ومعرفة الخير لأجل العمل به، فالكمال علم يقيني وعمل صالح، فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني. وأشار قوله: ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق، أي: أن يكون وسطاً غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة، فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التّشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، ويستمر كذلك فاصلاً بين الجبري والقدري، وبين الرجاء والقنوط، وفي الأعمال بين الغلو والتفريط. اهـ(١).

وقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ هي في معناها مثل كلمة التوحيد فقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ تقابل لا إله إلا الله ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ تقابل محمد رسول الله. إذ لا تصح الاستقامة إلا بمعرفة نبينا محمد ﷺ وهديه والثبات على ذلك. وهي أيضاً مثل قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يقابل ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يقابل ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ بل هذه أعم لأن الاستغفار جزء من الاستقامة.

وقد أمر الله تعالى بإقامة الدين كله فقال جل شأنه: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [الشورى: ١٣]، وأمر بإقامة الصلاة في غير موضع من كتابه كما أمر بالاستقامة على التوحيد.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/٢٨٢ ـ ٢٨٤) بتصرف يسير.

الفصل الثاني

أهمية الاستقامة

إن سعادة العبد في حياته الدنيا والآخرة مرتهنة بتزكيته لنفسه ولا تكون تلك التزكية إلا بتقويم النفس على دين الله وشرعه. كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكان حقًّا على اللبيب الحذق أن يحرص كل الحرص على الاستقامة على المنهج الصحيح الذي يسعد به في دنياه وأخراه.

وكلما ترقى الإنسان في درجات الكمال الإنساني كلما تحقق له من سعادة الدنيا والآخرة النصيب الأكبر والحظ الأوفر. ومن شأن الاستقامة أن ترقى بصاحبها إلى درجات الكمال وتحفظ عقله من أن يتطرق إليه الفساد وتصون نفسه من التردي في حمأة الرذيلة.

وإذا سيطرت الرغبة في الاستقامة على الأفراد والجماعات وسادت بينهم حسنت أحوالهم واستقامت أمورهم وعمهم الأمن والسلام وبسط الله عليهم من بركات السماء والأرض.

وقد اهتم الإسلام بتقويم الإنسان والرقي به في درجات الكمال فما من خلق فاضل محمود إلا وأمر به وما من خلق سيِّئ مذموم إلا وحذر منه.

ولهذا أتت الأوامر بالاستقامة في مواطن كثيرة من الكتاب والسنة أحياناً موجهة لقائد الأمة وإمامها ونبيها ﷺ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وأحياناً موجهة للأمة ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وأحياناً بالحث على الاستقامة ببيان الثمار المترتبة عليها في الدنيا والآخرة، وأحياناً ببيان أنها منّة وفضل يصطفي الله له من يشاء من عباده المؤمنين ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، وأحياناً ببيان أنها هي

الطريق الذي يدعو إليه خاتم أنبياء رسله محمد ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وأحياناً بالأمر بلزوم الاستقامة حتى الموت ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

بل جعل الله أحب الأعمال الصالحة إليه ما استقام عليه صاحبه وداوم عليه كما في الحديث الصحيح: «**وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل**»⁽¹⁾.

وكان أحب الدين إلى نبينا ﷺ ما داوم صاحبه عليه⁽²⁾.

وتبرز أهمية الاستقامة من خلال الأمور التالية:

أولاً: الأمر بالاستقامة:

لعظم أمر الاستقامة وأهميته أمر الله بها عبادة المؤمنين في غير ما آية من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢] فأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين بالاستقامة على أمر الله ودينه وشرعه، والثبات على ذلك، ونهاهم عن ضد الاستقامة وهو الطغيان وتجاوز أمر الله إلى ما نهي عنه، وأعلمهم أنه بصير بأعمال العباد خيرها وشرها لا يخفى عليه من ذلك شيء

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ـ كتاب اللباس ـ باب الجلوس على الحصير ونحوه (١٠/٣١٤) رقم (٥٨٦١).

(٢) أخرجه النسائي في سننه ـ كتاب الإيمان وشرائعه ـ باب أحب الدين إلى الله (٨/١٢٣) رقم (٥٠٣٥) من حديث أم المؤمنين عائشة. وهو في الصحيحين بلفظ: أن مسروقاً سأل عائشة ﵂ أي العمل كان أحب إلى النبي ﷺ؟ قالت: «الدائم». انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب التهجد باب من نام عند السحر (٣/١٦) رقم (١١٣٢)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب صلاة الليل... (١/٥١١) رقم (١٣١).

وسيجازيهم على ذلك⁽¹⁾.

بل أمر الله بها حتى المشركين فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] فأمر الله نبيه بأن يقول للمشركين المكذبين المعرضين عن قبول ما جاء به إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم، ومثلكم في الجنس والصورة والهيئة، لست بملك. يوحي الله إلي أنه لا تصلح العبادة إلا لمعبود واحد وهو الله سبحانه ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: بالتوحيد والطاعة والإخلاص، ووجهوا إليه وجوهكم بالرغبة والعبادة دون الآلهة الأخرى، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: سلوه العفو عما سلف من الذنوب، وعن التقصير الذي يحصل في الاستقامة فتجبروه بهذا الاستغفار لأن الاستقامة حق الاستقامة غير ممكنة كما قال ﷺ: **«استقيموا ولن تحصوا»**⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥] أي: إلى ذلك الدين الذي شرع لكم ووصى به جميع المرسلين قبلك وخص بالذكر منهم أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار المتبعة إلى ذلك الدين فادع الناس إليه، واستقم على العمل به أنت ومن اتبعك، ولا تزغ عنه واثبت عليه كما أمرك ربك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: أهواء المشركين فيما افتروه واختلقوه من عبادة الأوثان الباطلة، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: صدقت بما أنزل الله من الكتب المنزلة لا أكذب بشيء من ذلك. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم كما أمرني ربي ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/٥٩٨، ٥٩٩)، ومدارج السالكين (٢/١٠٨)، وتفسير ابن كثير (٤/١٨١٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٠/٣٧٨)، ومدارج السالكين (٢/٨ ـ ١٠٩). والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٧٧)، وابن ماجه في سننه ـ كتاب الطهارة وسننها ـ باب المحافظة على الوضوء (١/١٠١، ١٠٢) رقم (٢٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٢٢٤).

أي: هو المعبود الحق لا إله سواه ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: نحن براء منكم كما قال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١] فلكل ثواب ما اكتسب من العمل. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، قال مجاهد: لا خصومة، وقال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، قال ابن كثير: وهذا متجه لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة⁽¹⁾.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع والمآب في ذلك اليوم.

وقال ابن عطية: «وخوطب عليه السلام بأمر الاستقامة وقد كان مستقيماً بمعنى دم على استقامتك، وهكذا الشأن في كل مأمور بشيء متلبس به إنما معناه الدوام، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عين النبي ﷺ وكانت شديدة الموقع في نفسه، أعني قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] لأنها جملة تحتها جميع الطاعات، وتكاليف النبوة، وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «**شيبتني هود وأخواتها**»، فقيل له: لمَ ذلك؟ قال: «**لأن فيها ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾**»⁽²⁾، وهذا الخطاب له ﷺ بحسب قوته في أمر الله تعالى، وقال هو لأمته بحسب ضعفهم: «**استقيموا ولن تحصوا**»⁽³⁾.

ثانياً: فضل الاستقامة وثوابها:

إن مما يدفع على الاستقامة وتكبد المشاق في سبيل تحقيقها على أكمل وجه ما يترتب عليها من جزيل الثواب وعظيم الأجر الذي أعده الله لأهلها.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣١٢٠/٧).

(٢) الحديث صحيح من غير قوله: «فقيل له: لم ذلك...» إلخ. رواه الترمذي في سننه - كتاب التفسير سورة الواقعة (٣٧٥/٥، ٣٧٦) رقم (٣٢٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٩٥٥).

(٣) تقدم تخريجه قريباً ص(٦١).

ومن يتأمل الثمرة التي يجنيها صاحب الاستقامة يجد أمراً عجباً من الثمار العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة، فتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠] أي: عند الموت وساعة الاحتضار قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ فيما أنتم مقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلفتموه وراءكم من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال فإنا نخلفكم فيه بخير ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير وهذه البشائر كلها مقرونة بالاستقامة على أمر الله إذ خلقنا الله لعبادته والاستقامة عليها حتى الموت كما قال جل شأنه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] أي: الموت، كما جاء في حديث البراء أن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان(١).

وحكى ابن جرير عن ابن عباس ﷺ والسدي أن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث، رواه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدًا، وهو الواقع.

وقول: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى

---

(١) لم أجده بهذ اللفظ وأصله صحيح من حديث البراء ﷺ رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨٧/٤، ٢٨٨)، وأبو داود في سننه كتاب السنة باب في المسألة في القبر (٢٣٨/٤) رقم (٤٧٥١)، والحاكم في المستدرك (٣٧/١ ـ ٤٠) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص(١٩٨ ـ ٢٠٢) رقم (١٠٥).

جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، أي: اخترتم، ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف⁽¹⁾.

ومثل هذه الآية في المعنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

وقال سبحانه في آية ثالثة عن مسلمي الجن: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

وفي معنى هذه الآية قولان:

الأول: أي: لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام والحق والاستقامة واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً، أي: لوسعنا عليهم في الرزق وبسطناهم في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: نختبرهم ونبتليهم لنرى من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية.

الثاني: أي: لو استقاموا على طريقة الضلالة لأوسعنا عليهم في الرزق

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/٣١٠٥، ٤١٠٤)

استدراجاً كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] أي: شاقًا شديداً مؤلماً لا راحة فيه(١).

ثالثاً: وصف الرب سبحانه وتعالى نفسه بأنه على صراط مستقيم:

كما قال جل شأنه على لسان هود عليه السلام: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦] فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله فهو يقول الحق ويفعل العدل فالصراط المستقيم الذي عليه ربنا تبارك وتعالى هو مقتضى التوحيد والعدل قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللصنم فهو سبحانه الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم والصنم مثل العبد الذي هو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد وهو قادر متكلم غني وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله فقوله صدق ورشد ونصح وهدى وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة هذا أصح الأقوال في الآية وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم فالشرع والقدر والخلق والأمر والثواب والعقاب قائم بالعدل والتوحيد صادر عنهما وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٣٣٤ ـ ٣٣٦)، وتفسير ابن كثير (٨/٣٦٣٦ ـ ٣٦٣٧).

الرب سبحانه وتعالى، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا﴾ هو كقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ وقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ نصب على الحال وفيه وجهان؛ أحدهما: أنه حال من الفاعل في ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ والعامل فيها الفعل والمعنى على هذا شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو، والثاني: أنه حال من قوله: ﴿هُوَ﴾ والعامل فيها معنى النفي، أي: لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط وبين التقديرين فرق ظاهر فإن التقدير الأول يتضمن أن المعنى شهد الله متكلماً بالعدل مخبراً به آمراً به فاعلاً له مجازياً به أنه لا إله إلا هو فإن العدل يكون في القول والفعل والمقسط هو العادل في قوله وفعله فشهد الله قائماً بالعدل قولاً وفعلاً أنه لا إله إلا هو وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل شهادة كما أن المشهود به أعدل شيء⁽¹⁾.

رابعاً: وصف الله صراطه والطريق الموصل إليه بالاستقامة:

وذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٗاۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥، ١٢٦] فمن شرح الله صدره للإسلام بأن يوسع قلبه للتوحيد والإيمان فقد هدي إلى صراط الله المستقيم وهو هذا الدين الذي شرعه الله لنبيه محمد ﷺ بما أوحاه إليه من القرآن فهو طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه وجعله مستقيماً لا عوج فيه فاثبت واستقم عليه بإحلال حلاله وتحريم حرامه فقد بينا الآيات والحجج على حقيقة ذلك وصحته لمن تذكر واعتبر بتلك الآيات⁽²⁾.

---

(١) انظر: التفسير القيم ص(٣١٢، ٣٤٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٩/٥٥٣)، وابن كثير ٣ (/١٣٦٣ - ١٣٦٤).

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ويأتي شرحها قريباً إن شاء الله في الفقرة «ثامناً».

خامساً: أن الله تعالى وصف بها نبيه وصفيه من خلقه محمداً ﷺ:

كما قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣] فيأمر الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ بأن يستمسك بهذا القرآن، والسين والتاء مزيدتان للطلب يقال: استمسكت بالشيء إذا تحريت الإمساك به فيأمر الله نبيه ﷺ بالأخذ بالقرآن فإنه الحق وما يهدى إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنان النعيم والخير الدائم المقيم(١).

سادساً: أن الله تعالى هدى نبيه ﷺ إليها وأمره بدعوة الناس إليها:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، وهداية الله لنبيه وخليله محمد ﷺ لا تكون إلا للأفضل والأكمل كما دلت هذه الآية على أن الاستقامة هي ملة خليل الرحمٰن نبي الله إبراهيم عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فالنبي ﷺ اجتباه ربه وهداه إلى الصراط المستقيم وهو يهدي الناس إلى ما هداه الله إليه.

---

(١) الطبري (٢٠/٦٠٢)، وابن كثير (٧/٣١٤٨)، ومفردات القرآن للراغب مادة مسك ص(٧٦٩).

سابعاً: أنها وصف لما جاء به الخليلان محمد وإبراهيم عليهما الصلاة السلام:

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١] أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم وهو دين الله الذي بعثني به وهو الحنيفية السمحة المستقيمة ملة إبراهيم عليه السلام الذي لم يكن مشركاً بالله تعالى(١).

وكما أخبر سبحانه عن خليله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

ثامناً: أوصى الله عباده بها وأضافها إلى ذاته المقدسة وأمره لنبيه بأن يدعو الناس إليها:

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال الطبري: أي: هذا الذي وصاكم به ربكم أيها الناس في هاتين الآيتين من قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢] وأمركم بالوفاء

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/٢٤٤، ٢٤٥)، وابن كثير (٣/١٤٠١).

به؛ هو صراطه يعني طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾ يعني قويماً لا اعوجاج به عن الحق فاتبعوه واعملوا به واجعلوه لأنفسكم منهجاً تسلكونه ولا تسلكوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافه من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان وغير ذلك من الملل فإنها بدع وضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ﴾ أي: تتشتت بكم في أنفسكم إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبيل ولا طريق ولا أديان، ﴿عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ يعني عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه وهو الإسلام الذي وصى به الأنبياء وأمر به الأمم قبلكم، ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ هذا ما وصاكم به ربكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ لتتقوه في أنفسكم فلا تهلكوها، وتحذروا ربكم فيها فلا تسخطوه عليها فيحل بكم نقمته وعذابه⁽١⁾.

وقال ابن عاشور: «والإشارة إلى الإسلام: أي وأنّ الإسلام صراطي؛ فالإشارة إلى حاضر في أذهان المخاطبين من أثر تكرّر نزول القرآن وسماع أقوال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، بحيث عرفه النّاس وتبيّنوه، فنزل منزلة المشاهد، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة، ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع التّشريعات والمَواعظ التي تقدّمت في هذه السّورة، لأنّها صارت كالشّيء الحاضر المشاهد، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ [آل عمران: ٤٤].

والصّراط: الطّريق الجادة الواسعة، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ والمراد الإسلام كما دلّ عليه قوله في آخر السّورة: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ [الأنعام: ١٦١] لأنّ المقصود منها تحصيل الصّلاح في الدّنيا والآخرة فشبّهت بالطّريق الموصل السّائر فيه إلى غرضه ومقصده.

ولما شبّه الإسلام بالصّراط وجعله كالشّيء المشاهد صار كالطّريق

---

(١) الطبري (٩/٦٦٩، ٦٧٠).

الواضحة البيّنة فادّعي أنّه مستقيم، أي: لا اعوجاج فيه لأنّ الطّريق المستقيم أيسر سلوكاً على السائر وأسرع وصولاً به.

والياء المضاف إليها (صراط) تعود على الله، كما بيّنه قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] على إحدى طريقتين في حكاية القول إذا كان في المقول ضمير القائل أو ضمير الآمر بالقول. وقوله: ﴿مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ حال من اسم الإشارة، وحسّن وقوعه حالاً أنّ الإشارة بنيت على ادّعاء أنّه مشاهد، فيقتضي أنّه مستحضر في الذّهن بمجمل كلياته وما جرّبوه منه وعرفوه، وأنّ ذلك يريهم أنّه في حال الاستقامة كأنّه أمر محسوس، والسُّبُل: الطّرق، ووقوعها هنا في مقابلة الصّراط المستقيم يدلّ على صفة محذوفة، أي: السّبل المتفرّقة غير المستقيمة، وهي التي يسمّونها: بُنيات الطّريق، وهي طرق تتشعّب من السبيل الجادّة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أي: فإنّها طرق متفرّقة فهي تجعل سالكها متفرّقاً عن السّبيل الجادّة.

وقال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٧]. فأمر الله نبيه بدعوة مخالفيه من المشركين بالله في النسك إلى اتباع أمر الله في ذلك وأن يجتنبوا الذبح لغير الله والأكل مما ذبح لغير الله. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ غير زائغ عن الحق والصواب الذي أمرك به ربك(١).

وقال تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [يس: ١ - ٤] قال القرطبي في تفسيره: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ «أي: دين مستقيم وهو الإسلام. وقال الزجاج: على طريق الأنبياء الذين تقدموك، وقال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ خبر إن، و﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثان، أي: إنك لمن المرسلين، وإنك على صراط

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/٥٢٥ - ٥٢٩).

مستقيم. وقيل: المعنى لمن المرسلين على استقامة، فيكون قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من صلة الْمُرْسَلِينَ، أي: إنك لمن المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: الصراط الذي أمر الله به⁽¹⁾.

وفي الآية دليل على أن جميع الرسل عليهم السلام على صراط مستقيم.

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾ [الزخرف: ٤٣].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ﴾ أي: من القرآن وإن كذب به مكذب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ واضح والجملة تعليل لقوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾ [المؤمنون: ٧٣، ٧٤] أي: تدعو هؤلاء المشركين إلى طريق قاصد، وصراط مستقيم، لكنهم عادلون جائرون منحرفون عنه، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنه⁽³⁾.

تاسعاً: أن الله يجتبي ويصطفي لها خيرته من أنبيائه وخلقه:

كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾ [يونس: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/١٦).

(٢) انظر: فتح القدير (٤/٥٣٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩١/١٧)، وابن كثير (٢٣٤٨/٥).

وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الاستقامة على الحق وشرع الله ودينه مكان رفيع شريف إنما يجتبي الله خيرته من خلقه.

عاشراً: أن الاستقامة هي الطريق الذي هدى الله له عباده المؤمنين:

كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله ﷻ وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة . . .

وكان أبو العالية يقول: في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بعلمه، بما هداهم له. قاله ابن جرير: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: من خلقه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وله الحكم والحجة البالغة(١).

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤] أي: في الدنيا والآخرة ـ وهذا وعد من الله لا يتخلف ـ أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٥٣٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٢٤٠٦).

الحادي عشر: أنها من أخص صفات الأخيار والصالحين:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٧].

فنصت هذه الآيات على ثمانية عشر نبياً من أنبياء الله وألحقت بهم جملة من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم الذين ساروا على منهجهم واتبعوا ما جاؤوا به من هدى، فجميع هؤلاء اصطفاهم الله تعالى وهداهم إلى الاستقامة وسلوك الصراط المستقيم، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال في الصافات عن موسى وهارون: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١١٨)﴾ [الصافات: ١١٨].

وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

الثاني عشر: أنها وصف للقرآن والكتب السماوية المنزلة لهداية البشرية:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾ [الكهف: ١، ٢].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن سمي كتاباً لأنه يكتب أو لأنه جامع، لأن الكَتْب بمعنى الجمع ولهذا يقال: الكتيبة يعني المجموعة من الخيل والقرآن صالح لهذا وهذا فهو مكتوب وهو أيضاً جامع... و﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً غاية الاستقامة.

ذكر هنا نفي العيب أولاً ثم إثبات الكمال ثانياً وهكذا ينبغي أن تخلي المكان أولاً ثم تضع الكمال ولهذا يقال: «التخلية قبل التحلية»(١).

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ١ - ٣] أي: فيها مكتوبات قيمة جمع كتاب بمعنى مكتوب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وفي قراءة الجمهور: ﴿للكتاب﴾ والمعنى أي للمكتوب، أي: كما نطوي الصحيفة على ما كتب فيها.

الثالث عشر: أنها وصف للدين كله:

في جميع جوانبه وتكاليفه الشرعية فالكل غاية في الاستقامة لما يترتب علي ذلك من جلب المصالح ودفع المضار قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥](٢).

* * *

---

(١) انظر: تفسير سورة الكهف ص(٨، ٩).

(٢) انظر: تفسير جزء عم لابن عثيمين ص(٢٧٧)، والتيسير في القراءات السبع ص(١٥٥).

الفصل الثالث

متعلقات الاستقامة

أولاً: في جانب العبادة:

تقدم معنا في فضل الاستقامة أن الله تعالى وصف الأديان السماوية بها وأمرنا بإقامة الدين كله لكن الأصل في ذلك في جانب العبادة ومتعلقه الذي لا يقوم مع فساده أي جانب من جوانب العبادة هو التوحيد وإلا فإن الاستقامة هي الدين كله، ولهذا جاء في الصحيح عند مسلم وغيره من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: **«قل آمنت بالله ثم استقم»**(١).

والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم وهو الدين القيم من غير تعوج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك الاستقامة على التوحيد وفعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها(٢).

قال ابن رجب وفي قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها فيجبر ذلك الاستغفار والمقتضى للتوبة والرجوع إلى الاستقامة فهو كقول النبي ﷺ لمعاذ: **«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»**(٣).

---

(١) انظر: صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب جامع أوصاف الإسلام (٦٥/١) رقم (٣٨).

(٢) جامع العلوم والحكم ص(١٩٣).

(٣) جامع العلوم والحكم ص(١٩٣)، والحديث رواه الإمام أحمد في المسند (١٥٣/٥)، والترمذي في سننه ـ كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء في معاشرة الناس (٣١٢/٤، ٣١٣) رقم (١٩٨٧)، والدارمي في سننه (٧٩٩/٢) رقم (٢٦٨٨)، وهو في الصحيحة (٣٦١/٣، ٣٦٢) رقم (١٣٧٣).

فأصل الاستقامة وحقيقتها استقامة القلب على توحيد الله كما تقدم في تفسير أبي بكر ﷺ للآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] أي: على توحيد الله ولم يلتفتوا إلى غيره.

قال ابن رجب رحمه الله: ولعل من قال: إنَّ المرادَ الاستقامة على التوحيد إنَّما أرادَ التوحيدَ الكاملَ الذي يُحرِّمُ صاحبَه على النار، وهو تحقيق معنى لا إله إلا الله، فإنَّ الإله هو الذي يُطاعُ، فلا يُعصى خشيةً وإجلالاً ومهابةً ومحبةً ورجاءً وتوكُّلاً ودعاءً، والمعاصي كلُّها قادحة في هذا التوحيد؛ لأنَّها إجابة لداعي الهوى وهو الشيطان، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قالَ الحسن وغيره: هوَ الذي لا يهوى شيئاً إلاَّ ركبه، فهذا يُنافي الاستقامة على التوحيد(١).

وفي الحديث عن ثوبان ﷺ عن النبي قال: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(٣).

فالسداد هو حقيقة الاستقامة، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/٥٠٩).

(٢) تقدم تخريجه ص(٦١).

(٣) انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب المرضى ـ باب تمني المريض الموت (١٠/١٢٧) رقم (٥٦٧٣)، وصحيح مسلم ـ كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/٢١٧٠) رقم (٢٨١٦).

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم كالذي يرمي إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب به ولا يرى أن نجاته به بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله. فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة(١).

وقال تعالى: ـ مقرراً وحدانيته وأنه لا شريك له وأن هذا المعتقد هو الصراط المستقيم الذي يجب أن يعتقده الناس ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٣٦] أي: ما قص الله على نبيه من خبر عيسى عليه السلام وأنه عبد لله كما قال عن نفسه عليه السلام فيما حكى الله عنه: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٢٩، ٣٠].

فأول ما تكلم به نبي الله عيسى عليه السلام تنزيه جناب الرب سبحانه من الشرك وتبرئته من الولد وأثبت لنفسه أنه عبد لله أوحى الله إليه وجعله نبياً من الأنبياء، فهذا الذي قصصناه عليك يا محمد من خبر عيسى هو الحق ثم نزه نفسه عما يقول الجاهلون الظالمون المعتدون من الشرك والولد فقال:

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٠٩ ـ ١١٠).

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ [مريم: ٣٥](١).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: إني وإياكم عبيد لله فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي أوصيكم به من توحيد الله وإفراده بالعبادة وأخبرتكم أن الله أمرني به هذا الطريق المستقيم الذي من سلكه نجا ومن ركبه اهتدى لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه(٢).

ويصح أن يكون المعنى كما قال ابن كثير: أي: ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته فقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به من عند الله صراط مستقيم أي: قويم من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوى(٣).

وما أكثر الآيات في القرآن الكريم التي تقرر هذا المعنى ألا وهو أن تحقيق توحيد الله، وعبادته هو الاستقامة، ومنها قوله تعالى على لسان عيسى أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣، ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

وهذا تقريع من الله تعالى لمن أطاع الشيطان وهو العدو المبين وعصى الرحمٰن الخلاق الرزاق الكريم ولهذا قال: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي: عصيان الشيطان وطاعة الرحمٰن هو الصراط المستقيم لكن ما أكثر الذين يحيدون عنه ويسلكون المسالك المعوجة ولهذا قال

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٢٢٢٠ ـ ٢٢٢٢).

(٢) تفسير الطبري (١٥/٥٣٤ ـ ٥٤٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/٢٢٢٣).

بعدها: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] أي: خلقاً كثيراً ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢] أي: أين ذهبت عقولكم من مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وتوحيده وحده لا شريك له وعدولكم إلى اتباع الشيطان وسلكتم مسالكه(١).

بل وأمر سبحانه بالاستقامة والقسط في جزئيات من العبادة تأكيداً على أهمية العدل فيها ـ وإن كانت الاستقامة مطلوبة في جميع جوانب الدين ـ كقوله تعالى في شأن الوزن: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥﴾ [الإسراء: ٣٥] أي: وقضى ربك أن أوفوا الكيل للناس إذا كلتم لهم حقوقهم ولا تبخسوهم، وقضى أن زنوا بالقسطاس المستقيم أي: الميزان المستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه ولا دغل ولا خديعة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: من ظلم الناس وبخسهم حقوقهم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: عاقبةً ومالاً ومردوداً عليكم لأن الله يرضى بذلك عنكم فيحسن لكم العاقبة والجزاء(٢).

ثانياً: في جانب العبد:

إن الأصل في استقامة العبد لا مجرد استقامة جوارحه الظاهرة على تعاليم الدين بل لب ذلك وحقيقته استقامة القلب على دين الله وشرعه فهو أمير الجوارح وقائدها وهي تبع له في ذلك كما ثبت في الحديث الصحيح: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**(٣).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/٢٩٥٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/٥٩١ ـ ٥٩٣).

(٣) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير ﷺ. انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/١٢٦) رقم (٥٢)، وصحيح مسلم كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٣/١٢١٩، ١٢٢٠) ورقم (١٥٩٩).

ولا نجاة للعبد ولا فلاح إلا باستقامة قلبه وسلامته كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] أي: سالم من الدنس والشرك.

قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور. وقال ابن عباس: حَيِي يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: يعني: من الشرك. وقال سعيد بن المسيب: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله: ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ [البقرة: ١٠]⁽¹⁾.

فالمراد سلامته عن الاعتقادات والإرادات الفاسدة كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ⁽²⁾.

فمتى استقام القلبُ على معرفةِ الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكُّلِ عليه، والإعراض عما سواه، استقامت الجوارحُ كلُّها على طاعته، فإنَّ القلبَ هو ملكُ الأعضاء، وهي جنودهُ، فإذا استقامَ الملك، استقامت جنودُه ورعاياه، وكذلك فسَّر قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] بإخلاص القصد لله وإرادته وحدَه لا شريكَ له.

وأعظم ما يُراعى استقامتُه بعدَ القلبِ مِنَ الجوارح اللسانُ، فإنَّه ترجمانُ القلب والمعبِّرُ عنه، ولهذا لما أمر النَّبيُّ ﷺ بالاستقامة، وصَّاه بعدَ ذلك بحفظ لسانه⁽³⁾.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢٥٨٦/٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣٣٧/١٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (٥١٢/١).

واستقامة القلب تحصل بأمرين:

الأول: أن تكون محبة الله عند العبد مقدمة على جميع المحاب فإذا تعارض حب الله وحب غيره سبق حب الله كل ما سواه وترتب على ذلك مقتضاه من تعظيم الله وأمره.

الثاني: تعظيم الأمر والنهي وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي وقد ذم الله ﷻ من لا يعظم أمره ونهيه فقال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تخافون له عظمة. وتعظيم الأمر والنهي كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو ألا يعارض بترخيص جافي ولا تشديد غالي ولا يحمل على علة توهن الانقياد له⁽¹⁾.

وبحسب هذا التعظيم تكون استقامة القلب وكمال إيمان المرء وتصديقه وصحة عقيدته وبعده عن الشرك ومخالفة الأمر والنهي وتفاضل الأعمال عند الله تعالى يكون بحسب تفاضل ما في القلوب من استقامة على أمر الله وما فيها من إيمان وإخلاص ومحبة وتوابع ذلك. فالسير إلى الله تعالى حقيقة هو سير القلوب فإذا استقام القلب وصح عمله واعتقاده وصدق في ذلك فقد ينال العبد الأجر الكامل المترتب على فعل الطاعة ولو لم يعلمها لعارض من عجز أو مرض أو نحوه يشهد لذلك قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢] فإنها نزلت في البكائين الذين لم تكن لهم رواحل يبلغون عليها الجهاد في سبيل الله يوم تبوك ولم يكن عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه⁽²⁾.

---

(١) انظر: الوابل الصيب ص(١٣)، ومدارج السالكين (٥١٧/٢)، ومراده بشيخ الإسلام هنا أبو إسماعيل الهروي صاحب منازل السائرين الذي شرحه ابن القيم في مدارج السالكين.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦٢٤/١١ ـ ٦٢٧)، والواحدي في أسباب النزول ص(٢٩٦) وغيرهم.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبدالله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال ـ بعد أن قفل من تبوك راجعاً ودنا من المدينة ـ: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه**». قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة حبسهم العذر**»، وفي لفظ لمسلم: «**شركوكم في الأجر**»(١).

فانظر إلى من استقامت قلوبهم وصح عزمهم على فعل الطاعة كتب الله لهم أجر العاملين كاملاً لما علم الله صدق ذلك منهم مع أنهم لم يعملوا بسبب العجز الذي حال بينهم وبين ذلك. فنالوا أجر العاملين كاملاً بسبب استقامة قلوبهم؛ هذا في جانب ترك فعل المأمور. وكذلك الأمر في جانب فعل المحذور إذا اضطر إليه العبد أو أكره على فعله ما دام قلبه مستقيماً لا عوج فيه ولا ميل ولا انحراف فإنه لا يكتب عليه من الوزر شيء ألبتة.

يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦] فإنها نزلت في عمار بن ياسر ﷺ حين عذبه المشركون حتى يسب النبي ﷺ ويمدح آلهتهم. وفي بعض الروايات حتى يكفر بالنبي ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «**كيف تجد قلبك؟**»، قال: مطمئناً يا رسول الله. قال: «**فإن عادوا فعد**»(٢).

فانظر كيف تجاوز الرب سبحانه وتعالى عما ظاهره الكفر مع استقامة القلب واطمئنانه بالإيمان لما كان قائل ذلك مكرهاً. وبقدر ما في القلوب من

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإجازه، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر (١٥١٨/٣) رقم (١٩١١).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٣٧٤/١٤، ٣٧٥)، وعبدالرزاق في تفسيره (٣٦٣/٢)، والواحدي في أسباب النزول ص(٣٢٦).

استقامة وإيمان يعظم العبد عند الله تعالى ولهذا كان أبو بكر ﷺ أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ لما تحقق في قلبه من الاستقامة وكمال الإيمان مع أن في الأمة من هو أكثر عملاً وحجًا وصوماً وجهاداً وقراءةً منه، قال التابعي الجليل أبو بكر ابن عباس رحمه الله: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه(١).

وإذا حاد القلب عن طريق الاستقامة واعوج ولم يستقم على شرع الله لا ينفعه العمل آنذاك مهما كثر وليعتبر بحال طائفتين حادتا عن الجادة في ذلك فخابتا وخسرتا:

الأولى: المنافقون الذين كانوا يصلون مع الرسول ﷺ ويجاهدون معه ويحجون معه ومع ذلك قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥]. وما ذاك إلا لفساد قلوبهم وانحرافها وعدم استقامتها وخلوها من الإيمان.

الثانية: الخوارج الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «**يخرج في هذه الأمة قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم ـ أو حناجرهم ـ يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية**»(٢).

فلما خلت قلوبهم من الاستقامة والإيمان لم تنفعهم تلك الأعمال الظاهرة التي يحقر المؤمنون أعمالهم معها في ظاهرها لأنهم لم يعتنوا بأسسها وأصلها وهو استقامة القلب وصلاحه.

* * *

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٢٣/٦) و(٤٩٣/٨).

(٢) انظر: صحيح البخاري مع الفتح كتاب الزكاة ـ باب إثم من راءى بقراءة القرآن (٩٩/٩) رقم (٥٠٥٨)، وصحيح مسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٧٤٣/٢، ٧٤٤) رقم (١٤٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الفصل الرابع

أسباب تحصيل الاستقامة

أولاً: الدعاء:

فللدعاء أثره البالغ في جلب المسرات ودفع المضرات فهو من أقوى الأسباب في ذلك وقد أمر الله تعالى به ووعد عليه الإجابة، فقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] فمن فضل الله تعالى على عباده أن حثهم على الدعاء ووعدهم الإجابة وجعله دليلاً على الذل والخضوع لله ولهذا توعد من تكبر عن دعائه وتوحيده بدخول جهنم وهو صاغر ذليل.

فالدعاء سلاح المؤمن وهو مأمور به في كل حين، خصوصاً ما يتعلق منه بالهداية والاستقامة ولذلك أمرنا الله به في أفضل العبادات بأن نقول في كل ركعة من ركعات صلاتنا فرضاً كانت أم نفلاً: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦].

وحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه أعظم من حاجته إلى الرزق والنصر بل لا نسبة بينهما فمن مات بانقطاع الرزق أو مات شهيداً في سبيل الله كان موته موصلاً له إلى سعادته الأبدية إن كان من أهل الهدى والاستقامة فالعبد مضطر إلى مقصود هذا الدعاء فلا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية(١).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/٣٧ - ٤٠).

وما في الفاتحة من الثناء والدعاء وهو قول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، والعبد دائماً محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن ـ دع ثلثه ـ ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقم مقامه، ولم يسد مسده(١).

وقال شيخ الإسلام: ومعنى هذا الدعاء ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ طلب العلم بالحق والعمل به جمعاً(٢).

وقال أيضاً: وهذا كما يقول بعضهم في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فيقولون: المؤمن قد هدى إلى الصراط المستقيم، فأي فائدة في طلب الهدى؟! ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للنائم: نم حتى آتيك، أو يقول بعضهم: ألزم قلوبنا الهدى، فحذف الملزوم، ويقول بعضهم: زدني هدى، وإنما يوردون هذا السؤال؛ لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه، فإن المراد به العمل بما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور. والإنسان وإن كان أقر بأن محمداً رسول الله، وأن القرآن حق على سبيل الإجمال، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره، وما أمر به، وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه، ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة، فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية، لا يمكن غير ذلك لا تذكر ما يخص

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣١/١٧ ـ ١٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦٦/٧).

به كل عبد؛ ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم.

والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا قال الله لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ١، ٢]، وقال في حق موسى وهارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨].

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمداً حق، والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال؛ لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين.

قال سهل بن عبدالله التستري: ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار، وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط. وقول من قال: زدنا هدى، يتناول ما تقدم، لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم، فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد، ولا يكون مهتدياً حتى يعمل في المستقبل بالعلم، وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب، وإن حصل فقد لا يحصل

العمل، فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة، فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من السعادة، والله أعلم(١).

قال ابن عطية: وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون وعندهم المعتقدات وعند كل واحد بعض الأعمال فمعنى قوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ فيما هو حاصل عندهم طلب التثبيت والدوام وفيما ليس بحاصل إما عن جهة الجهل به أو التقصير في المحافظة عليه طلب الإرشاد إليه وكل داع بهذا الدعاء إنما يريد الصراط بكماله في أقواله وأفعاله ومعتقداته فيحسن على هذا أن يدعو في الصراط على الكمال من عنده بعضه(٢).

وليس هذا مقصوراً على جانب العلم الشرعي وإن كان هو المقصود الأسمى والغاية العظمى لكن الاستقامة في ذلك تشمل جميع جوانب العلوم حتى العلوم الدنيوية لترقى بالأمم وتجلب لها السعادة ومتى استقام العبد في ذلك فإنه يضيف الجديد المفيد خصوصاً المسلم لأن عنده من الحوافز والدوافع الإلٰهية ما يدفعه إلى التعلم ونفع البشرية؛ ألا وهو عظيم الأجر الذي يرجوه من الله في الآخرة ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧]، إضافة إلى ما وعده الله به من الفتح ومزيد العلم والمعرفة في الدنيا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وما أحوج البشرية اليوم إلى بشر منصفين يراعون جوانب الاستقامة في هذا كله ـ وإن لم يكونوا مسلمين ـ بدلاً من تلك التيارات المتضاربة المتصارعة في مقاييسها والتي تكيل بها القوى الدولية بمكيالين:

مكيال وافي للكفر وأهله، ومكيال بخس للإسلام وأهله ولكن هيهات

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٠٦ ـ ١٠٩).

(٢) المحرر الوجيز (١/٧٤).

لن يأتي ذلكم العدل والإنصاف بغير الإسلام والاستقامة على تعاليمه فاللّهم أعز الإسلام وأهله واخذل الكفر وأهله.

ومن آيات الدعاء بالثبات على الاستقامة والهدي قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨]. وهذا الدعاء من ثمار العلم إذ يصح أن يكون هذا الدعاء من تمام قول الراسخين في العلم الذين يقولون في المحكم والمتشابه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] كما حكى الله عنهم في الآية التي قبلها ثم توسلوا إلى ربهم بالثبات على الاستقامة ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلها كالذين في قلوبهم زيغ ويتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتها على صراطك المستقيم ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: من قبلك، وتفضلاً منك لا عن سبب منا ولا عمل، وفي هذا ذل واستسلام واطراح بين يدي الرب وتبرؤ من الحول والقوة ﴿رَحْمَةً﴾ أي: تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها إيماناً ويقيناً ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾(١).

ثانياً: الاعتصام بالله:

والاعتصام افتعال من العصمة وهي المنع والحفظ والتمسك بما يعصمك يقال: عصمه عصماً، أي: منعه ووقاه مما يحذر واعتصم فلان بالله إذا امتنع به(٢).

والاعتصام بالله هو التوكل عليه والامتناع والاحتماء به وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه فإن ثمرة الاعتصام بالله هو الدفع عن العبد والله يدافع عن الذين آمنوا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٦٨٥)، والمحرر الوجيز (١/٤٠٤ - ٤٠٥).

(٢) انظر: مادة (عصم) في لسان العرب، (١٢/٤٠٣)، والقاموس المحيط ص(١٤٦٩).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨] فيدفع الله عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي إلى العطب ويحميه منه فيدفع عنه الشهوات والشبهات وكيد عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه فتفقد في حقه أسباب العطب فيندفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه⁽¹⁾.

فمن اعتصم بالله هداه إلى الصراط المستقيم ورزقه الاستقامة على الحق وأدخله في رحمته وجنته قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية والعدة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد وحصول المراد⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥] أي: جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل يرحمهم الله ويدخلهم جنته ويزيدهم ثواباً ومضاعفةً ورفعةً في درجاتهم ويهديهم طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمن في الدنيا والآخرة ففي الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والأقوال والأفعال وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات⁽³⁾.

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين؛ فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصمه من

---

(١) مدارج السالكين (١/٤٩٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/٧٤٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/١٠٧٧).

الضلالة والاعتصام به يعصمه من الهلكة فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، ودلالته على الطريق والسلامة من قطاع الطريق وآفاته تحصل بالعدة والقوة والسلاح.

فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلهم بها في طريقه.

ولهذا اختلفت عبارات السلف في معنى الاعتصام بحبل الله بعد إشاراتهم كلهم إلى هذا المعنى؛ فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله، وقال ابن مسعود: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به وإن ما تكرهون من الجماعة والطاعة خير مما تحبون من الفرقة، وقال أكثر المفسرين: هو القرآن. فالاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته مراقباً لأمره، أي: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها لا لمجرد العادة أو لعلة باعثة سوى امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب في التقوى: «هي العمل بطاعة الله على نور من الله نرجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله» وهذا هو الإيمان والاحتساب المشار إليه في كلام النبي ﷺ كقوله: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»**(١).

والاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل(٢).

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة. انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب فضل ليلة القدر، باب فضل ليلة القدر (٤/٢٥٥) رقم (٢٠١٤)، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (١/٥٢٣ ـ ٥٢٦) ورقم (٧٦٠).

(٢) مدارج السالكين (١/٤٩٥ ـ ٤٩٧).

ثالثاً: المجاهدة في السير إلى الله:

فإن من جاهد نفسه في الإقبال على الله، وتحرى الإخلاص واتبع هدي النبي ﷺ وفقه الله للاستقامة والهداية كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أي: الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءه وبذلوا جهودهم في اتباع مرضاته لنهدينهم الطرق الموصلة إلينا لأنهم محسنون، والله مع المحسنين بالعون والنصرة والهداية والثبات والاستقامة⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤] فمن صدق في مقصده إلى الله، وجاهد نفسه على ذلك، فإن الله يسدده ويوفقه للاستقامة على دينه وشرعه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧] أي: الذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها، فهداهم إليها، وثبتهم عليها، وزادهم فيها، ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: ألهمهم رشدهم⁽²⁾.

وعلى قدر ما يجاهد المرء نفسه في الإقبال على الله ولزوم الاستقامة والسير على الجادة متبعاً هدي النبي ﷺ وسلف الأمة مخلصاً في ذلك لله لا يلتفت إلى غيره؛ على قدر ما يتعجل جني الثمرة والتلذذ بالعبادة في هذه الدنيا فتهون عليه كل عقبة في سبيل الله.

والاستقامة في هذا الجانب ترادف الإيمان والتقوى فليس هناك غاية من العبادة إذا انتهى إليه العبد يقال له: دونك لا مزيد على ذلك بل الأمر كما قال الله تعالى - لأفضل من تعبد له ﷺ -: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

وعلى قدر مجاهدة العبد نفسه في الاستقامة والإقبال على الله يقبل الله

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٤/٧٩ - ٨٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٧/٣٢١٩).

عليه ويوفقه ويسدده ويشرح صدره وينير قلبه ويفتح عليه كما في الحديث القدسي المتفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»(١).

* * *

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح - كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠] (٣٨٤/١٣) رقم (٧٤٠٥)، وصحيح مسلم - كتاب التوبة - باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢١٠٢/٤) رقم (١).

الفصل الخامس

درجات الاستقامة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهي على ثلاث درجات(١):

الدرجة الأولى:

الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد لا عادياً رسم العلم ولا متجاوزاً حد الإخلاص ولا مخالفاً نهج السنة هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملاً، واجتهاداً فيه، وهو بذل المجهود واقتصاداً، وهو السلوك بين طرفي الإفراط وهو الجور على النفوس والتفريط بالإضاعة، ووقوفاً مع ما يرسمه العلم، لا وقوفاً مع داعي الحال، وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص، ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السنة؛ فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كليًا وإما خروجاً جزئيًا والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً. وهما: الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسنة، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدة طلب لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، أمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها قائلاً له: إن هذا خير وطاعة والزيادة والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتر مع أهل الفتور ولا تنم مع أهل النوم فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها فيخرج عن حدها كما أن الأول خارج عن هذا الحد فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

---

(١) انظر هذه الدرجات في: مدارج السالكين (٢/١١٠، ١١١) بتصرف.

وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف. اهـ.

ودليل ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الدرجة آيات كثيرة من القرآن الكريم، فكل آية فيها سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم تتضمن هذا، إذ لا تكون الاستقامة إلا عن علم ومعرفة بالله وما يجب له من القيام بأمره والانزجار عن نهيه ووصفه بما هو له أهل من أوصاف الكمال وتنزيهه عن كل عيب ونقص مع الإخلاص في ذلك واتباع هدي النبي ﷺ.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨].

الدرجة الثانية:

استقامة الأحوال: وهي شهود حقيقة تفرد الرب بالفعل وأن ما سواه محل جريان أحكامه وأفعاله فهو في مشهد الأمر والنهي والثواب والعقاب والموالاة والمعاداة والحب والبغض يتحرى مرضاة الله تعالى ويدور معها حيث دارت ويجعل الحامل له على ترك المحذورات وفعل المأمورات لا مجرد علمه بفساد هذه وصلاح هذه بل طاعة الله والتقرب إليه وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وهو في ذلك كله دائم اليقظة لا يطفئ نورها بظلمة الغفلة بل يستديم يقظته ويرى أن ذلك تحقق له بحفظ الله وتوفيقه لا أنه

حصل بتحفظه واحترازه هو. فهذه ثلاثة أمور: يقظة، واستدامة لها، وشهود أن ذلك بالحق سبحانه لا بالمرء نفسه، فليس سبب بقائه في نور اليقظة بحفظه بل بحفظ الله له وأن الاستقامة في هذه الدرجة لا تحصل بمجرد كسبه وإنما هي موهبة من الله وإن كان الأمر يحتاج إلى مجاهدة النفس وترويضها على سلوك طريق الاستقامة و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤].

ويشهد لما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الدرجة آيات من القرآن؛ مثل قوله الحق تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٩].

الدرجة الثالثة:

الاستقامة بترك رؤية الاستقامة، وبشهوده أن الله هو المقيم له والمقوم، وأن استقامته وقيامه بالله لا بنفسه ولا بطلبه، وهذا القدر من موجبات شهود معنى اسمه القيوم وهو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد وقام كل شيء به فكل ما سواه محتاج إليه. اهـ.

ويشهد لهذه الدرجة قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُۚ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٦].

الفصل السادس

ثمار الاستقامة

من وفقه الرب سبحانه وتعالى لسلوك طريق الاستقامة فإنه يجني من الثمار الحسية والمعنوية الشيء العظيم ومن ذلك:

١ ـ حسن الخاتمة.

٢ ـ تتنزل الملائكة عليه عند الموت مبشرة، ومطمئنة، ومثبتة.

٣ ـ حفظ الله له فيما وراءه من ولد وأهل ومال.

٤ ـ تطمين الملائكة له مما هو مقدم عليه.

٥ ـ تبشير الملائكة له بالجنة وما يدعو فيها من نعيم.

٦ ـ ولاية الملائكة له في الحياة وبعد الممات المتفرعة عن ولاية الله.

٧ ـ أنه في ضيافة الله ـ كفى بها من خاتمة ـ فالكرم على قدر الكريم، فكيف وقد وصف نفسه بأنه غفور رحيم يتجاوز عن السيئات ويضاعف الحسنات.

كل هذه الثمار يزفها لك أيها المؤمن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

٨ ـ التوسعة في الرزق وبركات الأرض، والأمنة من العذاب كما ينبئ به قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

٩ ـ أنه يحشر يوم القيامة على هيئة تشعر بإكرامه وعلو منزلته وجميل صنيعه ـ والجزاء من جنس العمل ـ فكما استقام وسار في الدنيا على مرضاة الله فإنه يسير يوم القيامة على هيئة سوية مستقيمة مرفوع الرأس معتدل القامة مهتدياً في سيره سالكاً طريقاً سويًا لا عوج فيه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبًا على وجهه أي: يمشي منحنياً لا مستوياً ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال. أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾؟ أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بيِّن وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات: ٢٢](١).

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقال تعالى:

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٥٨١).

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٣٤].

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**»، قال قتادة: بلى وعزة ربنا(١).

١٠ - أنها من علامات الإيمان، فلا تتأتى الاستقامة إلا بالإيمان والتقوى كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٤].

١١ - أنها من علامات الهداية قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٦]، فمن رزق الاستقامة فهي أمارة على هدايته.

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح، كتاب التفسير، سورة الفرقان، (٤٩٢/٨) رقم (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم، صفة القيامة والجنة والنار، باب يحشر الكافر على وجهه (٢١٦١/٤) رقم (٢٨٠٦).